نسق فرار المرء يوم القيامة
في سياق سورة [عبس] المباركة
بين قراءتين

الدكتور محمد جعفر
جامعة القادسية
كلية الآداب - قسم اللغة العربية

كلما اتسعت المنطقة الواصلة بين مدخرات النظام اللغوي وحقيقة استعمال ظهور بعينه من مدخرات هذا النظام وتوظيفه من اجل صوغ خاصة كلامية ما ، كانت الوقفة المتأملة أطول ؛ ومن ثم تتسع تبعا لذلك مساحة اللذة في ارجاء النص ما يحقق توارد مظاهر الانفعال[1] والتأثير في طيّات الظهور الكلامي • ومثل هذا تحققه اسلوبية السياق في تشكيلها الانفعالي لتحرك مادي مخصوص يتخذ تشكيله الكلامي صدى تشكيله الحركي الواقعي ، فيكون المحلل الدلالي وجها لوجه مع التناسب الاسلوبي — الدلالي بين الاثر الكلامي والمؤثر الواقعي ، وهذا ما يظهر مشخصا اثاريا في تكوين المنجز العلامي لحدث الفرار يوم الفزع الاكبر الذي تقدمه سورة ((عبس)) المباركة على نحو ترتيبي مخصوص يؤكد حالة تفرد الاداء والدلالة •

الفرار — التفكير والموقف

الفرُّ ، والفِرار : الهرب بسرعة وخفة • والمَفَر : الفرار ، والمَفِر بكسر الفاء موضعه ٢ • وقد جاء ذكر لفظه في القرآن الكريم (١١ مرة) انقسم استعماله فيها على قسمين بحسب حركة الفرار واتجاهه• اما القسم الاول ففرار الهرب ، وهو بمعنى (فرَّ من) ، وكان ذلك في (١٠ مرات) منها ما كان فرارا ماديا يفره الانسان من الموت او القتل ٣ ، او من هول يوم القيامة ٤ ، او من الاطلاع على اهل الكهف ٥، او من بطش آل فرعون ٦ والحرب ٧ • ومنها ما كان فرارا معنويا ، إذ يفر الانسان من الهدى والصلاح ٨ • واما القسم الثاني ففرار اللجوء والتوجه ، وهو بمعنى (فرَّ إلى) ، وليس منه في الاستعمال القرآني غير الفرار إلى الله تعالى ٩ ، وهو وحده الفرار المحمود ، على حين يكون

ما سواه مذموما ، او غير منج ، كما في فرار المرء يوم القيامة • يقول تعالى : ((فإذا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ ♦ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ♦ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ ♦ وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ ♦ لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ يَومَئِذٍ شَأنٌ يُغْنِيهِ)) [١٠] •

يوحي فعل الفرار في هذا السياق بالبوح بما في النفس مما يضنكها ويعكر صفو تفكيرها • وتبقى اشارته إلى اختلاط مشاعر الخوف بالامل•

والفار مرء ما يلوذ بنفسه طلبا لنجاتها • والمرء : الانسان [١١] ، أو الرجل [١٢] بخاصة • وجاء اختيار هذا اللفظ في سياق حدث الفرار لأنّه الانسب في الاحاطة بدلالتي الخصوص والعموم ؛ ذلك بأنّه أراد الكبار والصغار من رجال الانس والجن [١٣] ممن يفر يوم القيامة • ويشعر استعمال (المرء) هنا بتصاغر الذات [١٤] وخوفها في مسيرتها نحو النجاة والامن المظنون •

وبعد فإنَّ لفظة (المرء) موحية بالتفكير ؛ فالفرار آخر ما ينتهي إليه تفكير المرء بعد أن يستحضر جاهدا (ممكنات) متعددة لكنه لما يصطدم بيأس من أن يجد فيها حلا لمعضلته التي يعيش سواد آثارها النفسية فضلا عن آثارها البدنية والفكرية يكون الفرار هو القرار•

لكي نستجلي كتلة النص ونروح إلى المهيمن الدلالي الذي تدور حوله البنية التراكمية التي يتنازعها الالمام بالفرار المادي والفرار الروحي وما يقبع بينهما من شعور اغتراب لكي نستجلي ذلك كله نتخطر تشكيل المواقع التي كان يشغلها طرفا منظومة الفرار قبل الفرار•••

لقد كان المرء إلى جنب صاحبته وبنيه ، يتلوهما في القرب منه أمّه وأبوه ، ومن ثم يكون مقام أخيه ليس بقريب • يظهر أنَّ (المرء) يعيش حالة اجتماع ووصال تدريجي باؤلاء كلهم بحسب ظروف العلاقة ومتطلباتها ••• هكذا كان حضور هذه الذوات فضلا عن المرء قبل ممارسة الفرار ••• أمَّا ابَّان الفرار وبعده فيتغير كل شيء ، فيصير هؤلاء الاهل مفرورا منهم •

المفرور منه — ترتيب مهيمنة النص

بين الكلام والواقع

تقدم سورة ((عبس)) المباركة في سياق عرضها التفعيلي لخطوات الفرار فكرا وواقعا وما بينهما من آفاق ما يتوق الفار جنيه من جهة ، وما يتملكه من كثير اغتراب يصعد في اوج استثماره الايجابي بالبدن إلى اعلى طاقاته و(قفزاته) ، تقدم نسقا مخصوصا للذوات الذين يفر منهم المرء يومئذ يكشف عن البنية الحركية والبنية المعرفية للفرار بوصفه صورة مزدوجة الابعاد يحضر فيها الوهن ، والتخبط ، والعار ، والقوة ، وغرور النجاة والنصر •••، ولملمة ما تكسر من الذات في محاولة خادعة لاعادة اعمارها على آثار خطى هاربة تركت خلف ظهرها اقوى ما يمكن أن يقف على

عونها في موقفها هذا ... تركت الأخ ، والام ، والاب، والولد ، والزوج ؛ فأنّى لها مقومات الاعمار ، ولا معين ؟

ولأجل ذلك تأتي البنية الكلامية وقد استبطنت اجواء الحدث كلها ؛ إذ نجد أنَّ نسق البناء الاسلوبي قد تحول بسبب من تغير نسق الوجود المكاني والعاطفي لهذه الذوات ، فقد ((رتب المذكورين في الفرار بحسب العلائق فاقواهم به علاقة هو آخر من يفر منه فبدأ بالاخ ثم الام ثم الاب . وقدم الام على الاب ذلك أنَّ الاب اقدر على النصر والمعاونة من الام . وهو اقدر منها على الاعانة في الرأي والمشورة واقدر منها على النفع والدفع . فالام في الغالب ضعيفة تحتاج إلى الاعانة بخلاف الاب ... وقدم الفرار من الاب على الفرار من الزوجة لمكانة الزوجة من قلب الرجل وشدة علاقته بها ... ثم ذكر الفرار من الابناء في آخر المطاف ذلك لأنه الصق بهم وهم مرجون لنصرته ودفع السوء عنه اكثر من كل المذكورين)) [١٥] .و لايخفى أنَّ ثمة موقفا آخر في ترتيبهم هذا يمت بصلة ((للمبالغة كأن قيل : يفر من اخيه ، بل من امه وأبيه ،بل من صاحبته وبنيه)) [١٦] . ولعل فراره منهم يكون ضجرا بهم لعظم ما هم فيه [١٧] ، او حذرا من مظلمة لهم عليه [١٨] ، وربما لئلا يرى ما ينزل بهم ويروا هم ما ينزل به من الذل والهوان والعقاب [١٩] . وليس هذا فحسب ((بل انه يفر منه لأن مجرد رؤيته تشكل له حرجا فكيف بالتعاون معه ، وهذه لا تكون الا عند اعظم الشدائد حيث يركز فكر الانسان في نفسه دون أحد سواه)) [٢٠] . والحال هنا ((لا تمثل موت العاطفة ، بل تمثل تغلب الخوف المرعب الهائل على احساسه بعلاقاته النسبية والعاطفية ، مما يجمد له ذلك الشعور الانساني الحميم)) [٢١] . ومع هذا وذاك يكون الفرار يأسا من نفعهم ايَّاه وانتفاعهم به [٢٢] . وقد يكون سبب الفرار أن كان ((مؤمنا واقرباؤه من اهل النار فيعاديهم و لا يلتفت إليهم)) [٢٣] . وليس ببعيد هذا المشهد — نوعا ما - عن عناصر الخصوص ؛ فقد خصوا الاولاد بالذكور [٢٤] في هذا السياق ربما لارتباط الفرار بالنفع والانتفاع . وخصوا ايضا الفرار بفار ومفرور منه بعينه ، فقيل ((قابيل يفر من هابيل ، والذي ...يفر من امه موسى (عليه السلام) والذي يفر من ابيه ابراهيم (عليه السلام) يعني الاب المربي لا الوالد ، والذي يفر من صاحبته لوط (عليه السلام) والذي يفر من ابنه نوح (عليه السلام))) [٢٥] ، وتجدر الاشارة هنا أنَّه لا يضر السياق تركه على ارادة العموم ، فليست به حاجة لاحَّة إلى البحث عن اعلام فرت او اعلام فُر منها .

هذه قراءة لترتيب المفرور منهم اعتمدت التعلق والقرابة وتوقع النصرة... ، واقرب منها قراءة تقوم على ضوء من حركية المشهد وتجسيده واقعا ، فلما كان (المرء) قريبا — قبل الفرار _ من صاحبته وبنيه صار ابعد ما يكون _ بعد الفرار _ عنهم ، وبعيدا عن امه ، وابيه ، واخيه.

بدا أنَّ الترتيب الذي عليه الذوات المفرور منها ليس يريد أن يؤكد أنَّه فر من الاخ اولاً ، ومن ثم الام ، والأب ، والصاحبة ، والبنين ، وانما الترتيب هذا يسعى — وقد فعل — تصوير حالة الفرار وتشكيلها ببعديها الذهني والواقعي . فالمرء فر اول فراره

من صاحبته وبنيه ، أي ممن يعيش معهم ، ثم من ابيه وامه ، ثم من اخيه ٠ وفي تأخير الاخ او في جعله الاقرب الى المرء الفار ملحظ دلالي هو من الدقة والاهمية بمكان فالاخ قد يبتعد عن اخيه ، فضلا عن بقاء احتمال أن ينصره قائما، فجاء نسق الترتيب ليحكي ويجسد نهاية الفرار وحالة التخطي الحركي التي يمارسها فاعل الفرار ٠

ولعل نسق العبارة يحيل إلى الذهن والتصور صورة متحركة واضحة المعالم والخطى يظهر فيها الفار وقد خلّف وراء ظهره الابناء وزوجه ، والام ، والاب ، والاخ ، وينأى بنفسه بعيدا عنهم٠٠٠ ، فما انتهى ذلك الا عن تخطي الجميع ، وكأنَّ المرء فرَّ بادئ ذي بدء من صاحبته وبنيه ، بعد أن فرَّ من قبل من ذاته التي لم تحسب لهذا اليوم حسابه فتكسب ما يجلب الثبات والسكن ، ومرَّ فارا بامه وابيه فلم يجد منهم نصرا ، بل وجد بهم انفسهم حاجة إلى نصره ، فواصل فراره إلى أخيه فألفاه مشغولا بنفسه ففرَّ منه ايضا ٠ والخطاطة الآتية توضح ذلك :

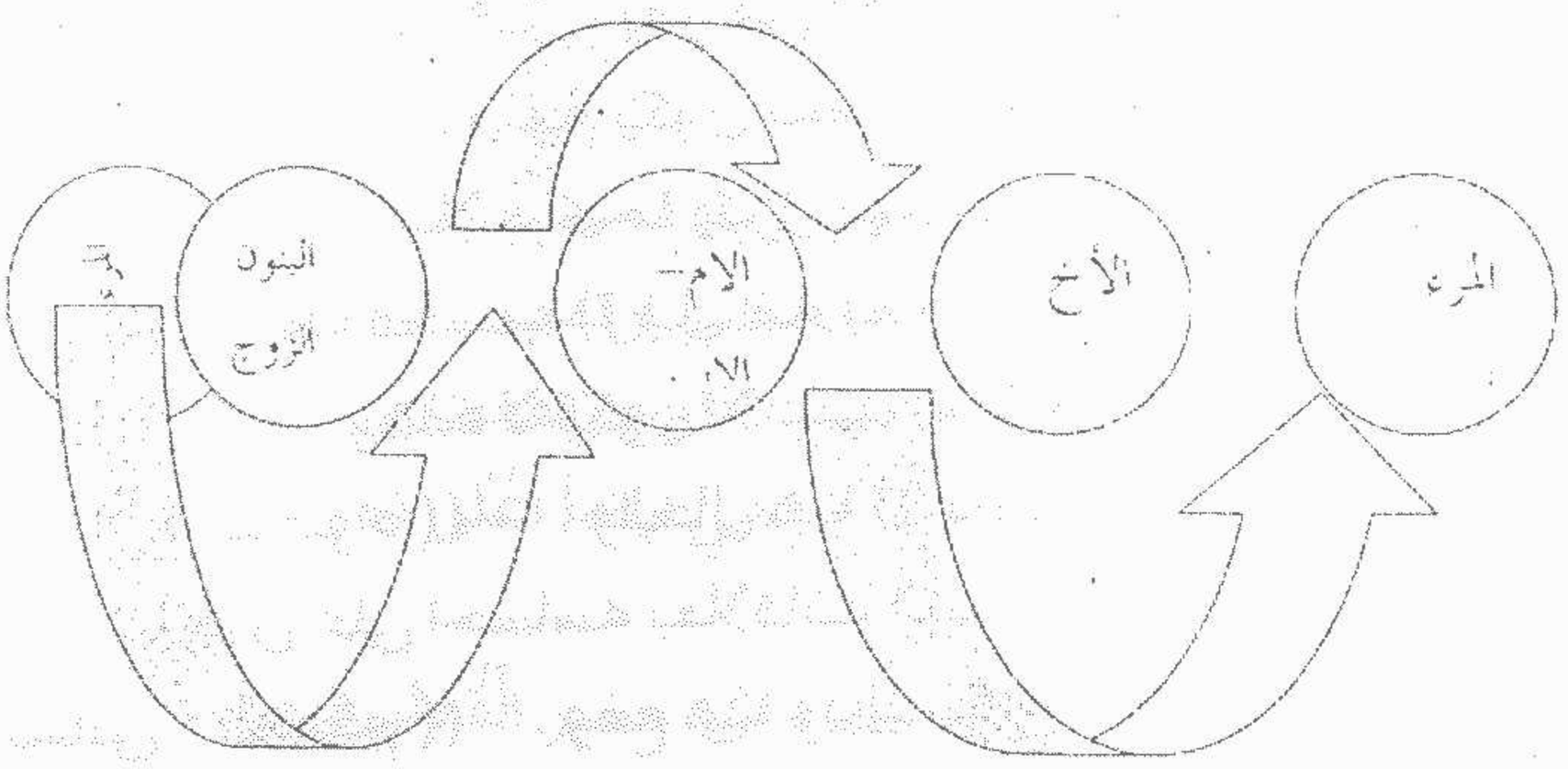

اكبر الظن أنَّ السياق القرآني يلمح إلى قراءة ترتيب المذكورين قراءة معكوسة فيرسم مشهد الفرار رسما تأثيريا جماليا يحفظ حركية الحدث التشكيلية ويطيل من آفاق واقعيتها المتخيلة من خلال الانفعال بعناصر الحدث الكلامي التي يخلقها المتكلم الفاعل اعتمادا على حسن إدارة الامكانات الاختيارية للغة ، بعد تحسس مواقعها وكيفياتها واسرار استعمالها وهواجس الدلالة فيها ، ومن ثم اثارة لطائف الاشارات الكامنة في ارجاء تحولات الكلام القابل وتذوقها ؛ فيأتي المحلل الدلالي ليفعل امثال ذلك سعيا منه في مراودة المعنى والوقوف على دقائق السياق وظهورات الاسلوب وصولا إلى جمال تعاطي الكلام وجلال التخييل وذائقة الدلالة .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- التبيان في تفسير القرآن ، ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ، تحقيق : احمد قصير العاملي ، قم ، مكتب الاعلام الاسلامي ، ط١ ، ١٤٠٩ .
- تفسير الصافي ، الفيض الكاشاني ، دار المرتضى للنشر ، ط١ ، مشهد .
- تفسير الكاشف ، محمد جواد مغنية ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط٣ ، ١٩٨١ .

- الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم ، محمد جعفر ، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القادسية ، ٢٠٠١ .
- اللغة ، جوزيف فندريس ، ترجمة : عبدالحميد الدواخلي ، و محمد القصاص ، مكتبة الانجلو المصرية ، مطبعة البيان العربي .
- لسان العرب ، ابو الفضل بن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٦ .
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د. فاضل صالح السامرائي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٩ .
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، امين الدين ابو علي الفضل الطبرسي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٧٩ .
- مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر ، مير سيد علي الحائري ، دار الكتب الاسلامية ، طهران ، ١٣٣٧ .
- من هدى القرآن ، محمد تقي المدرسي ، دار الهدى ، ط٦ ، ١٤٠٦ .
- من وحي القرآن ، محمد حسين فضل الله ، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٣ ، بيروت .
النهاية في غريب الحديث والاثر ، ابن الاثير المبارك الجزري ، دار الفكر .

الهوامش

---

١ تتحقق انفعالية اللغة بالترتيب والاختيار . ينظر .اللغة ، فندريس ١٨٦.
٢ ينظر . اللسان (فرر) ٣٥٦-٣٥٩.
٣ كان ذلك في : الاحزاب /١٦ ، الجمعة / ٨ .
٤ كان ذلك في : القيامة / ١٠ ، عبس / ٣٤.
٥ كان ذلك في : الكهف / ١٨.
٦ كان ذلك في : الشعراء / ٢١.
٧ كان ذلك في : الاحزاب / ١٦.
٨ كان ذلك في : نوح / ٦.
٩ كان ذلك في : الذاريات / ٥٠.
١٠ عبس / ٣٣- ٣٧.
١١ ينظر . اللسان (مرأ) ١٥٧/١.
١٢ ينظر . النهاية في غريب الحديث والاثر ،ابن الاثير ٤/ ٢١٠.
١٣ ينظر . لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د. فاضل صالح السامراني ١٤٥.
١٤ ينظر . الدلالة النفسية للالفاظ في القرآن الكريم ، محمد جعفر (اطروحة دكتوراه) ١٩٢.
١٥ لمسات بيانية في نصوص من لتنزيل ١٤٣-١٤٤.
١٦ تفسير الصافي ، الفيض الكاشاني ٥/ ٢٨٧. وينظر . تفسير الكاشف ، محمد جواد مغنية ٧/ ٥٢١.
١٧ ينظر . التبيان في تسير القرآن ، الطوسي ١٠/ ٢٧٧.
١٨ ينظر . تفسير الصافي ٥/ ٢٨٧، مقتنيات الدرر ومقتطفات الثمر ، علي الحائري ١٢/ ٧٣.
١٩ ينظر . التبيان ١٠/ ٢٧٧، مجمع البيان في تفسير القرآن ، الطبرسي ٥/ ٤٤٠.

٢٠ من هدى القرآن ، محمد تقي المدرسي ١٧/ ٢٣٦.
٢١ من وحي القرآن ، محمد حسين فضل الله ٢٤/ ٨٨.
٢٢ ينظر . التبيان ١٠/ ٢٧٧، مجمع البيان ٥/ ٤٤٠ ، تفسير الكاشف ٧/ ٥٢١.
٢٣ مجمع البيان ٥/ ٤٤٠.
٢٤ ينظر . التبيان ١٠/ ٢٧٧.
٢٥ تفسير الصافي ٥/ ٢٨٧.